

الخصائص  
اللغوية والأسلوبية

obeikandi.com

يقول تعالى: " أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا " (سورة النساء: ٨٢). إن التناسق المطلق الشامل الكامل هو الظاهرة التي لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبداً. ومستوياتها ومجالاتها مما تختلف العقول والأجيال في إدراك مداها، ولكن كل عقل وكل جيل يجد منها - بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه - ما يملك إدراكه، في محيط يتكيف بمدى القدرة والثقافة والتجربة والتقوى .. ومن ثم فإن كل فرد، وكل جيل، مخاطب بهذه الآية، ومستطيع - عند التدبر وفق منهج مستقيم - أن يدرك من هذه الظاهرة - ظاهرة عدم الاختلاف، أو ظاهرة التناسق ما تهيئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه ..

تتجلى هذه الظاهرة - ظاهرة عدم الاختلاف " ابتداءً في التعبير القرآني من ناحية الأداء وطرائقه الفنية .. ففي كلام البشر تبدو القمم والسفوح، التوفيق والتعثر، القوة والضعف، التحليق والهبوط .. إلى آخر الظواهر التي تتجلى معها سمات البشر، وأخصها سمة " التغير " أي الاختلاف المستمر الدائم من حال إلى حال، يبدو ذلك في كلام البشر، واضحاً عندما نستعرض أعمال الأديب الواحد، أو المفكر الواحد، أو الفنان الواحد، أو أي كان في صناعته، التي يبدو فيها الوسم البشري واضحاً .. وهو التغير والاختلاف " (١) .. والحقيقة أن النقد الحديث يقول إن " العمل الفني يطمح إلى الكمال، أي أنه في صورته المثالية كامل - ولكنه لا يرقى إلى هذه الصورة المثالية أبداً، فهو مرتبط بنقصان البشر، وما هو في الحقيقة إلا سجل مجد لمشاعر وأفكار أبعد ما تكون عن الكمال شكلاً ومضموناً، ويقول العماد الأصفهاني: " لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن ولو زيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل . وهذا من

أعظم العِبَر، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر " وحتى عندما يصل العمل إلى " الصورة النهائية" فإن ذلك لا يكون إيذاناً بالكمال أبداً، فالصورة المكتملة ليست كاملة لأنها تستند إلى معايير لا تفتأ تختلف من مكان إلى مكان ومن عصر إلى عصر .. ومن جمهور إلى جمهور في نفس الزمان والمكان" (٣).

هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح أن عكسها وهو الثبات، والتناسق، هو الظاهرة الملحوظة في القرآن - ونحن نتحدث فقط عن ناحية التعبير اللفظي والأداء الأسلوبي - " فهناك مستوى واحد في هذا الكتاب المعجز - تختلف ألوانه باختلاف الموضوعات التي يتناولها - ولكن مستواه وأفقه، والكمال في الأداء بلا تغير ولا اختلاف من مستوى إلى مستوى - كما هو الحال في كل ما يصنع الإنسان - إنه يحمل طابع الصفة الإلهية ويدل على الصانع، يدل على الموجود الذي لا يتغير من حال إلى حال، ولا تتوالى عليه الأحوال" (٣).

وإذا تأملنا القصة القرآنية والأسلوب الذي قُدمت به، وماله من تأثير نفسي وفني، اتضح وجه تسميتها " بالقصة " لا استناداً إلى مدلولها اللغوي فقط، باعتبار أن أصل الاشتقاق للفظ " قصة " يلتقي في المعنى مع المدلول الذي انبنى عليه أصل التسمية القرآنية، وهو: الإعلام بالنبا " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ " (سورة الكهف: ١٣)، أو تتبّع الأثر وتقصيه: " وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ " (سورة القصص: ١١)، بل واعتماداً على ما في عرضها من طرق فنية، " رغم أن شروط القصة بمعناها الاصطلاحي لا تنطبق عليها غالباً، لأنها إلى الأقصوصة أقرب، وذلك لقصرها، واقتصار القرآن في أكثر الأحيان على ذكر حلقة منها أو أكثر وعدم استيفائها كل عناصر القصة مجتمعة، من حوار وأشخاص وزمان ومكان وعقدة، كما شاع ذلك في معظم القصص الفني" (٤). فالقصة القرآنية لا يقصد بها العمل الفني المجرد، بل هي مزيج من العمل الفني والعلمي والديني، كما هو شأن البيان القرآني جميعه، ومعني ذلك أن من يطلب فيها أحد تلك المقاصد لاشك أنه واجده فيها على أرقى ما يمكن أن يصل إليه الكمال في العمل الأدبي، كما أشار البيان القرآني نفسه إلى ذلك في قوله تعالى: " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ " (سورة

يوسف: ٣) " فالقرآن لم يحدّد وجه الأحسنيّة .. أهو أحسن القصص بياناً وأسلوباً، أم أحسنه صدقاً فنياً، أم أحسنه صدقاً واقعياً، أم أحسنه عرضاً لوقائع التاريخ القديم، أم أحسنه وصولاً إلى متلقيه، أم أحسنه قياماً علي الحقائق ونأياً عن الخيال ؟ هو أحسن القصص في كل ذلك وغير ذلك كما قال عنه منزله وموحيه جلّ وعلا " ... وسنحاول فيما يلي أن نكشف عما نوفق إليه من جوانب تلك الأحسنيّة في الخصائص اللغوية والأسلوبية.

### أولاً: الخصائص اللغوية:

" القرآن هو ضمير الحياة العربية، وهو من اللغة كالروح الإلهية التي تستقر في مواهب الإنسان فتضمن لآثاره الخلود، ثم لا يدل عليها حين التعرّف إلا بصفات كل نفس لمواقع تلك الآثار منها، كأنّ هذه الروح تحاول أن تفصح عن معاني النبوغ الفني في آثارها الخالدة، فلا تجد أقرب إلى عرضها من أن تهيج الإحساس بها في كل نفس، فيجزئ ذلك في البيان عنها، لأن الإحساس إنّما هو اللغة النفسية الكاملة" (١).

والقصص القرآني باب من أبواب البيان القرآني العظيم .. ففيه من إعجاز القرآن ما في سائر أبوابه .. ونحن إنّما نبحت الإعجاز اللغوي في القصص القرآني، نبحت ما أفرد به في نفسه علي وجه الإعجاز، لا من جهة ما يشركه فيه غيره علي أي وجه من الوجوه، وبذلك يتركز بحثنا عند الخصائص اللغوية في القصص القرآني، من ناحية اللفظ والمعني.

" ومن أظهر الفروق بين أنواع الخصائص اللغوية في القصص القرآني، وبين هذه الأنواع في كلام الأدباء، أن نظم القصص القرآني يقتضي كل ما فيه منها اقتضاءً طبيعياً بحيث يُبنى هو عليها لأنها في أصل تركيبه، ولا تُبنى هي عليه، فليس فيه من المذاهب الكلامية التي بُنيت عليها علوم البلاغة ..

فالمصور البلاغية في الإبداع القصصي القرآني، إنّما هي وجه من نظم حروفه، بخلاف ما نجده في كلام الأدباء، فهذه الصور تصنع لموضعها وتبني عليه فربما

وقت وربما أخلفت، ولو هي رفعت من نظم قصصه ثم نزل غيرها في مكانها لرأينا النظم نفسه غير مختلف، وندرك بذلك مزية عظيمة في توازن حروفه، واثلاف مخارجها وتناسب أصواتها، ونحو هذا مما هو أصل الفصاحة، ومما لا تُغني فيه استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا غيرها، لأنه وجه من تأليف الحروف ونسق اللفظ فيها؛ وأنواع البلاغة فيه إنما هي من وجوه التأليف بين معاني الكلمات.. فالحرف الواحد في القصة القرآنية معجز في موضعه، لأنه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية وآيات الكثيرة، وهذا هو السرّ في إعجاز جملته القصصية إعجازاً أبدياً، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانية<sup>(١٧)</sup>.

وبذلك يتضح لنا أن أهم الخصائص اللغوية في القصص تدور حول جهات ثلاث: في الحروف، والكلمات والجمل:

### الحروف وأصواتها:

لما قرئ القرآن علي العرب، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جملة، ألقاناً لغوية رائعة، كأنها لا تتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها<sup>(١٨)</sup>، فلم يفهم هذا المعني، وإنه أمر لا قبيل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم، حتى أن من عارضه منهم " كمسيلمة "، جَنَحَ في خرافاته إلى ما حَسِبَهُ نظماً موسيقياً أو باباً منه، وطوي عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني، كأنه فظن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية، وإنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها، وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع..

وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرج فيه مداً أو غنةً أو ليناً، أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه علي مقادير تناسب ما في النفس من أصولها، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع؛ أو الإطناب والبسط، بمقدار ما يكسبه من الحدة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى؛ وحسبنا بهذا

اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقا في القرآن وقصصه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجر، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشي والتكرير، ونحو ذلك مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى...

وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها، أو بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن<sup>(١٠)</sup>، فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلي أن ذلك لا يكون أكثر ما نجد إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوي يستتبع القلقة أو الصغير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقا<sup>(١١)</sup>.

وبتطبيق هذا النظم الموسيقا العجيب علي سورة " مريم "، الذي يستغرق القصص نحو ثلثيها، نحس أن للصورة إيقاعاً موسيقياً خاصاً. فحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وفيه عمق: " رضياً . سرياً . حفيماً . نجياً، فأما المواضع التي تقتضي الشد والعنف، فتجئ فيها الفاصلة مشددة دالاً في الغالب: مداً . ضداً . إذا . هداً، أو زايا: عزاً، أزاً . وتنوع الإيقاع الموسيقا والفاصلة بتنوع الجو والموضوع يبدو جلياً في هذه السورة . فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى، فتسير الفاصلة هكذا:

" ذكر رحمت ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفياً... الخ " (١٢) وتليها قصة مريم وعيسي فتسير الفاصلة علي النظام نفسه:

" واذكر في الكتب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً... إلخ " (١٣) إلى أن ينتهي القصص، ويحيى التعقيب، لتقرير حقيقة " عيسي بن مريم " وللفضل في قضية

نبوته، فيختلف نظام الفواصل .. فتطول الفاصلة، وتنتهي بحرف الميم أو النون المستقر الساكن عند الوقف لا بالياء الممدودة الرخية علي النحو التالي:

" ذلك عيسي ابن مريم قول الحق الذي فيه يمرون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .. إلخ " (١٧).

وهكذا يتغير نظام الفاصلة فتطول، وتصبح بحرف النون أو بحرف الميم وقبلها مدّ طويل . وكأنها هو في هذه الآيات الأخيرة يصدر حكماً بعد نهاية القصة، مستمداً منها. ولهجة الحكم تقتضي أسلوباً موسيقياً غير أسلوب الاستعراض وتقتضي إيقاعاً قوياً رصيناً، بدل إيقاع القصة الرخي المسترسل، وكأنها لهذا السبب كان التغيير ..

وبمجرد الانتهاء من إصدار هذا الحكم وإلقاء ذلك التقرير وعاد السياق إلى القصص عادت الفاصلة الرخية المديدة:

" واذكر في الكتب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً. إذ قال لأبيه يابت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً.. إلخ " (١٨).

حتى إذا جاء ذكر المكذبين وما ينتظرهم من عذاب وانتقام، تغير الإيقاع الموسيقا، وجرس الفاصلة: " قل: من كان في الضللة فليمدد له الرحمن مداً . حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب، وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً .. إلخ " (١٩) وفي موضع الاستنكار يشتد الجرس والنغم بتشديد الدال:

" وقالوا: اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إداً، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ... إلخ " (٢٠).

" وهكذا يسير الإيقاع الموسيقا في السورة وفق المعني والجو، ويشارك في إبقاء الظل الذي يتناسق مع المعني في ثنايا السورة، وفق انتقالات السياق من جو إلى جو، ومن معني إلى معني " (٢١).

" إن الفاصلة القرآنية ترد وهي تحمل شحنتين في آن واحد: شحنة من الوقع الموسيقا، وشحنة من المعني المتمم للآية . فالمعني هو الذي يتحكم في نوع الفاصلة،

ثم يأتي النغم الموسيقا متمماً للروعة التي يتميز بها أسلوب القرآن<sup>(١٥)</sup>.

" وهذه هي طريقة الاستهداء الصوتي في اللغة، وأثرها طبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس علي أي حال إلا الإقرار والاستجابة ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضرباً من الكلام البليغ الذي يطمع فيه أو في أكثره، ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى اللغات الأخرى، ولكنه انفراد بهذا الوجه للعجز، فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر، لكان ذلك خللاً بيناً أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجرس النغمة، وفي حسّ السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفشاء بعضها إلى بعض"<sup>(١٦)</sup>

ومثال ذلك ما نجده في قصة إبراهيم عليه السلام: " قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ " (سورة الشعراء: ٧٥-٨٢).

فقد خطفت ياء المتكلم في " يهدين ويسقين ويشفين ويحيين " محافظة علي حرف الفاصلة مع " تعبدون، والأقدمون، والدين ... " .

ومثله في قصة موسى والعبد الصالح: قال ذلك ما كنا نبغ . فارتدا علي آثارهما قصصاً" (سورة الكهف: ٦٤)، فلو مددنا ياء نبغي كما هو القياس لا ختل الوزن نوعاً من الاختلال .. وأحياناً لا يكون هناك عدول عن صيغة قياسية، ومع ذلك نلاحظ الموسيقا الكامنة في التركيب، والتي تحتل لو غيرنا نظامه مثل ما جاء في قصة زكريا: " ذَكَرْ رَحْمَةَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا " (سورة مريم: ٢-٤) فلو حاولنا مثلاً أن نغيّر فقط وضع كلمة " مني " فنجعلها سابقة لكلمة " العظم ":

لأحسنا بما يشبه الكسر في الوزن الموسيقا، ذلك أنها تتوازن مع "إني" في صدر الآية هكذا: قال رب إني وهن العظم مني" ...

" وهكذا نلاحظ نوعاً من الموسيقا الداخلية، يكمن في نسيج اللفظة المفردة، وتركيب الجملة الواحدة، وهو يُدرك بحاسة خفيّة، وهبة لدنيّة" (١٠).

### ثانياً: الكلمات وحروفها:

الكلمة في الحقيقة الوضعية إنما هي صوت النفس، وصوت العقل، وصوت الحس، إما صوت النفس: فهو الصوت الموسيقا الذي يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه علي طريقة متساوقة وعلي نضد متساو، بحيث تكون الكلمة كأنها خطوة للمعني في سبيله إلى النفس، إن وقف عندها هذا المعني قُطِعَ به ...

إما صوت العقل: فهو الصوت المعنوي الذي يكون من لطائف التركيب في جملة الكلام، ومن الوجوه البيانية التي يداور بها المعني، لا يخطئ طريق النفس من أي الجهات انتحي بها.

أما صوت الحس: فهو أبلغهن شأنًا، لا يكون إلا من دقة التصور المعنوي، والإبداع في تلوين الخطاب، ومجازبة النفس مرة وموادعتها مرة، بما يسوقه إليها من طرائف المعاني..

وإذا ذهبنا نبحث في أصول البلاغة الإنسانية عن حقيقة نفسية ثابتة قد اطردت في اللغات جميعاً، وهي في كل لغة تُعدّ أصلاً في بلاغتها، لما أصبنا غير هذه الحقيقة التي تظهر في شيء من الكلام ظهورها في القرآن وهي:

### - الاقتصاد في التأثير علي الحس النفسي:

ونلاحظ ذلك في كلمات القصص القرآني، فهي لا تُسرف على النفس، ولا تستفرغ مجهودها، بل هي مقتصدة في كل أنواع التأثير عليها، فلا تضيق به ولا تنفر منه" (١١)، ولذلك نجد الكلمات في القصص القرآني، تتميز بمميزات منها:

## ١- جمال وقعها في السمع (٢٢):

ويرجع ذلك إلى دقة القرآن في استخدامه للألفاظ وحسن اختيارها في مواقعها. فقد جاء علي لسان السحرة الذين آمنوا بموسى على الرغم مما أوعدهم به فرعون من عقابٍ شديد: " رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا" (سورة الأعراف: ١٢٦).

فإن ما يثيره لفظ " أفرغ " وما يوحى به من لين ورفق وطمأنينة يحسها من هدأ جسمه بما يلقي عليه . وهذه الراحة تشبهها تلك الراحة النفسية التي ينالها من منح الصبر الجميل، فإذا جاء إلى العذاب استخدم لفظ " صب " فقال: " فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ " (سورة الفجر: ١٣). وهي مؤذنة بالشدة والقوة معاً...

" وهكذا فإن للألفاظ أطيافاً وظلالاً وأصداء في النفس، كما أن لجرسها إيقاعاً في الأذن.. والكلمات في التعبير، كالألوان في الرسوم، والأنغام في الموسيقى، ويكفي أن نقرأ ما ورد في قصة " زكريا " من دعاء، وتمييزه بإيقاعه الغنائي؛ ودعاء " إبراهيم " وأصوات ألفاظه المتقطعة المتهدجة، ودعاء " نوح " المجلجل المديد، فهي كلها في سموها وحرارتها كأنها أناشيد الساء"<sup>(٣)</sup>.

## ٢- " اتساقها الكامل مع المعنى " (٢٤):

### أ- العلاقة بين الآية وفكرتها:

حيث نلاحظ الانسجام بين الفكرة التي تحملها الآية، والخاتمة التي تنتهي بالفاصلة، ولنقرأ قوله تعالى مثلاً علي لسان عيسى عليه السلام عندما يسأله ربه يوم القيامة: " أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ الله "، فيجيب فيها يجيب: " إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (سورة المائدة: ١١٦-١١٨).

فقد نتساءل عندما نقرأ هذه الآية: لماذا لم تنته بقوله مثلاً: " وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم "، مع أن السياق يوحى بالغفران؟ ولكننا إذا أمعنا النظر وجدنا أن الذي استحق العذاب لا يستطيع أن يغفر له إلا من كانت سلطته أعلي

السلطات، وقوته أعظم القوي، وعزته فوق كل عزة، ومن كان كذلك وجب أن يكون متصفاً بالحكمة التي يساندها العقل والمنطق السليم، وينأى عنها الحمق والتسرع والظلم والتهوّر، وإذا جاءت الفاصلة بالعزة مقترنة بالحكمة، فلأن القادر علي العقاب عزيز دائماً... ولكن ليس كل عزيز عادلاً. فكم من ملوك وحكام ومن بينهم سلطان علي الناس في هذه الدنيا ملكوا العزة، إلا أنهم فقدوا الحكمة التي يسندها العدل والعقل والسلوك المستقيم، ولذلك نجد أن ربط الحكمة بالعزة تعبير رائع، وتصوير جامع، وبيان قاطع لخالق عزيز حكيم<sup>(٣٠)</sup>.

والحق أنه ما انتهت آية إلا بفاصلة ملائمة كل الملائمة لمعناها، مستقرة في مكانها، غير نافرة ولا قلقة .

ب- " أَلْفَاظٌ يَظُنُّ بِهَا التَّرَادُفَ وَلَيْسَتْ مِنْهُ " (٣١):

" أسلوب القرآن يتألق في اختيار ألفاظه ووضعها في الأماكن اللائقة بها، بحيث تكون مستقرة في مكانها مطمئنة في قرارها، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها يستخدم كل حيث يؤدي معناه في دقة فائقة، فكأنها تؤمن بأن هذا المكان كأنها خلقت له تلك الكلمة بعينها، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفيق المعني الذي وفق به أختها، فكل لفظة من أفراد القرآن وضعت لتؤدي نصيبها من المعني أقوى أداء . ولذلك لا نجد فيه ترادفاً، بل كل كلمة تحمل معنى جديداً، ولها في النفس إيجاءات خاصة، ولذا دعا القرآن إلى عدم استخدام لفظ مكان آخر " (٣٢): " قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا " (سورة الحجرات: ١٤). ولذلك لا يجوز القول بوقوع الترادف في لغة القرآن لأنه كلام فصّلت عباراته وأحكمت ألفاظه ووضع كل حرف فيه بإتقان بديع، ولذا وجب علينا في دراستنا للغة القصص القرآني أن نتبع ألفاظه لنبرز ما بينها من فروق دقيقة ودلالات مميزة:

- كل ... وأجمع: في قصة الاحتفاء بميلاد آدم ودعوة الملائكة إلى السجود له:

" فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ " (سورة الحجر: ٣٠، سورة ص: ٧٣).

وقال الخليل وسيبويه: إن مجيئها في الآية علي هذا النحو لإفادة التأكيد بعد التأكيد . وهذا الكلام صحيح من وجهة النظر النحوية، ولكن هذا لا يعني أنها مترادفان في التأكيد فيقال فيهما " توكيد بعد توكيد " وإنما لكل منهما تأكيد خاص وجهته المنفردة .. فلفظ " كل " في صورته المختلفة يدل علي الإحاطة والشمول، أما لفظ " أجمع " فيدل علي الضم والاجتماع . فيكون الأول تأكيداً لمعني الوحدة في الفاعل . والثاني تأكيداً لمعني الوحدة في الفعل .. ويكون ذكرهما معاً في الآية الكريمة لإحكام البيان في صفة السجود وهيئته ليدل بالأول ( كلهم ) علي عموم الامتثال، وبالثاني ( أجمعون ) علي سرعة الاستجابة ... وبهذا يكون التأكيد بـ ( كل ) لإفادة أن العدد العديد صار فرداً واحداً في امثال الفعل ويكون التأكيد بـ ( أجمع ) لإفادة أن العدد العديد صار فرداً واحداً في حركة الفعل ..

وقد سئل " المبرد " عن اجتماع اللفظين في الآية فقال: لو قال: " فسجد الملائكة " احتتمل أن يكون سجد بعضهم . فلما قال ( كلهم ) زال هذا الاحتمال فظهر أنهم بأسرهم سجدوا . ثم بعد ذلك بقي احتمال آخر وهو أنهم سجدوا دفعة واحدة أو سجد كلهم وأحد منهم في وقت آخر . فلما قال ( أجمعون ) ظهر أن الكل سجدوا دفعة واحدة<sup>(٢٨)</sup>.

وتتجلي هذه الدقة أيضاً في قوله تعالى في قصة لوط عليه السلام:

" إِيَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ " ( سورة الحجر: ٥٩ ).

فقد ذكر لفظ أجمعين دون أن يأتي معه بلفظ كل . لأن المقام مقام إحاطة وشمول في هيئة الفعل وحركة الزمن لأن النجاة تحققت للناجين من آله في لحظة واحدة، هي نفس اللحظة التي تحقق فيها الهلاك بالصيحة علي المجرمين من قومه . ولم يقل ( كلهم ) لأن النجاة لم تتحقق لكل فرد من الآل بدليل قوله ( إِيَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَابِرِينَ ) ( سورة الحجر: ٦٠ ). ولو قال ( إنا لمنجؤهم كلهم ) لكان ذلك منافياً للاستثناء<sup>(٢٩)</sup>.

## - الزوج ... والبعل

فالزوج يدل علي رباط الثنائية بين قرينين فإذا انفك هذا الرباط انتفت صفة الزوجية فيها .. وأما لفظ " البعل " فيفيد معني الفحولة في المعاشرة الزوجية ..

وفي إطار هذه الفروق الدقيقة جاء اللفظان في مواضعهما من القرآن الكريم، ويخصنا هنا ما جاء في قصة إبراهيم عليه السلام: " قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ " (سورة هود: ٧٢).

فالموقف موقف دهشة واستغراب، فقد بشر الملائكة إبراهيم بالولد وهو شيخ كبير وامرأته عجوز عقيم، فلما سمعت استغربت الخبر وعبرت عن موضع الغرابة فيه بقولها (أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا). وهي محقة حين تبني قولها علي معهود الحياة في استعدادات الطبيعة البشرية التي يقتضي التناسل فيها خصوبة الشباب في الأم وبعولة الشباب في الزوج ..

وهذا من أطف الإشارات في إفهام القصد، ولو قالت (وزوجي شيخاً) لم يتحقق لها ذلك، فإن الشيخوخة لا تتنافي مع الزوجية ولا تكون مبعث إنكار واستغراب .. ويؤكد هذا المعني قولها " شيخاً " بالنصب فهي لم ترد الإخبار وإلا لقلت " بعلي شيخ " ولكنها أرادت اظهار الحال التي عليها بعلمها من الشيخوخة التي تحول دون تحقق البعولة فيه .. وقد اعتبر " الواحدي " ذلك من لطائف النحو وقال إنه قائم مقام قولها: أشير إلى بعلي حال كونه شيخاً ... والمقصود تعريف هذه الحال المخصوصة وهي الشيخوخة ..<sup>(٣٠)</sup>.

## - السنة ... والعام:

فقد اختلف التعبير بهما في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: " قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ هُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِوْنَ " (سورة يوسف: ٤٧-٤٩).

وهذه المخالفة في التعبير تلفت النظر وتشد الانتباه، فظاهر السياق يقتضي أن يتوافق التعبير ويطرد اللفظ ليوائم نسق العبارات، والخروج علي هذا النسق يدل علي أن وراءه حكمة بيان وإحكام معني:

أولاً: السنة:

ويوحي جرسها في اللغة بمعناها، وهو معني يدور حول الحدة والقطع، والضمور والجفاف.. وجاء بهذا المعني في قوله تعالى: " وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ " ( سورة الأعراف: ١٣٠). أي الشدة والقحط .

ثانياً: العام:

وهو من العوم بمعني السباحة والانتشار، ودلالته دلالة خير ورخاء إذا فالعام زمن مخصوص بالخير موصوف بالرخاء.

وفي ضوء هذا تتكشف بعض جوانب السرّ في اختلافها في لغة القرآن فقد جاء لفظ السنين في قوله: " تزرعون سبع سنين دأباً " وقوله: " ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد " . أي سبع سنين، لأن المقام مقام شدة ومعاناة وتقدير في الأوقات وتضييق في الأرزاق يدلّ عليه السياق ويصرّح به المقال، ويحمل عليه حسن التدبّر لنسق العبارات: " تزرعون .. دأباً فما حصدم فذروه .. إلا قليلاً مما تأكلون .. شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون " . وهي عبارات تصور واقع المعاناة، وتكشف عن الجذب العام والقحط الطويل.

أما لفظ العام فقد جاء في قوله: " ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون " . لأنه مقام الفرج بعد الضيق، والرخاء بعد الشدة، والخصب العميم بعد الجذب والجفاف..

" وبهذا يتبين لنا أن المخالفة بين لفظيهما مخالفة بيان واختلاف مقام لا مخالفة ترادف واختلاف تنويع في العبارات " (٣)

ومثل هذا، اختلاف التعبير بهما في قصة نوح، في الآية الكريمة:

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا" (سورة العنكبوت: ١٤). وكان مقتضى التناسب البلاغي في السياق يتطلب المطابقة بينهما في أسلوب الاستثناء، فيقال (ألف سنة إلا خمسين سنة) .. وإنما خالف بينهما على هذا النحو، للدلالة على أنها زمانان متغايران وأن أيام لبثه عليه السلام في دعوة قومه كانت أيام معاناة ومشقة وجهاد، لاقى فيها أشد ألوان العنت والمخاصمة مما جعله يشكو إلى الله إصرارهم على الكفر، وعنادهم لدعوة الحق ويستصرخه: " قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَايُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا" (نوح: ٥-٧).

" قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي دَعَايُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا" (سورة نوح: ٢١-٢٢).

ولما اشتد عندهم وزاد ضلالتهم قال: " وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا" (سورة نوح: ٢٦). مما يدل على أن أيامه معهم كانت سنين مشقة لا أعوام راحة ورخاء، ثم جاء الطوفان فاقتلع جذور الكفر وطهر وجه الأرض وعم السلام والأمان والرخاء فعاش عليه السلام أياماً هي أعوام رخاء ووثام<sup>(٣٣)</sup>.

#### - أكل ... وافترس

يقول " الخطابي " في تفسيره لقوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: " وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّبَابُ " سورة يوسف من آية ١٣.

وأن الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب، أصل الفرس دق العنق، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلاً، وأنه أتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلاً ولا عظيماً، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق يشهد على صحة ما ذكروه، فادعوا فيه الأكل، ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى، فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بالأكل<sup>(٣٣)</sup>.

## - البث ... والحزن

فقد جاء في قصة يوسف لفظ البث معطوفاً على الحزن، في قوله تعالى: " قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ " (سورة يوسف: ٨٦). ولدقة الفرق بينهما عدّهما كثير من العلماء من المترادف الذي يختلف لفظه ويتحد معناه .

وأصل البث في اللغة: التفريق والانتشار<sup>(٣١)</sup>، ومنه في القرآن الكريم:

وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا " (سورة الواقعة: ٥-٦).

" يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ " (سورة القارعة: ٤)

فالبث: الهمّ الشديد سمّي بذلك لعدم قدرة صاحبه على تحمّله حين يجتمع ويتكاثف فيضيق الصدر به ويضعف العزم عن كتانه فيبثّه الناس، ويتخفّف إليهم منه .

أما " الحزن ": فأصله في اللغة الغلظ والخشونة، ومنه قيل للأرض الغليظة الصلبة حزن<sup>(٣٢)</sup>، فالحزن: الهم الذي يسيطر على صاحبه ويستولى عليه الأيام والليالي حتى يعجز عن معالجته ونسيانه، وسمي بذلك لغلظه وتأبيه على السلوان .. وهو معنى في الهمّ غير معنى البث، وعطفه في الآية عطف تغاير لا عطف ترادف .. والقصد من ذكرهما معاً الجمع بين نوعي الهم للدلالة على أن " يعقوب " عليه السلام إنما يفزع إلى الله وحده في كل أحواله ويشكو له وحده أنواع همومه: الحزن القديم الذي تسلط واشتد وازداد مع الأيام صلابه وغلظاً، لا يلين مع الزمن ولا ينقاد للنسيان، والبث الجديد الذي نما وتزايد حتى ملأ الصدر على رحابته وضاق به الصبر على سعته، فلم يجد له حيلة ولم يستطع له علاجاً إلا أن يبثه إلى الله ويستعين به عليه<sup>(٣٣)</sup>

## - الخشية ... والخوف

يقول " الزركشي ": لا يكاد اللغوي يفرّق بينهما، ولا شك أن الخشية أعلى من الخوف، وهى أشد الخوف، فإنها مأخوذة من قولهم: شجرة خشية إذا كانت يابسة

وذلك فوات بالكلية، والخوف من قولهم: ناقة خوفاً، إذا كان بها نقص وليس بفوات .. وفُرق بينهما أيضاً بأن الخشية تكون من عظم المخشي وإن كان الخاشي قوياً، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المخوف أمراً يسيراً، ويدل على ذلك أن الخفاء والشين والياء في تقاليبها تدل على العظمة، قالوا: شيخ للسيد الكبير، والخيش لما عظم من الكتان، والخاء والواو والفاء في تقاليبها تدل على الضعف<sup>(٣٧)</sup>

و" لأبى هلال " رأى في الفرق بين الكلمتين يذهب فيه إلى أن الخوف: يتعلق بالمكروه وبترك المكروه، والخشية تتعلق بمنزل المكروه ولا يسمّى الخوف من نفس المكروه خشية ولهذا قال تعالى: " وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ " ( الرعد: ٢١ ) .. وقال تعالى على لسان " هارون " عليه السلام: " إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ " ( طه: ٩٤ )، وذلك لأنه خشى القول المؤدى إلى الفرقة، والمؤدى إلى الشيء بمنزلة من يفعله<sup>(٣٨)</sup>.

إذا فالخوف في رأى " أبى هلال "، إنما يكون مع التوقع والترقب في موقف مجهول النتائج ظني الاحتمالات، وعليه تكون الخشية خاصة بالحالة التي تصاحب الضرر المتيقن والخطر المشهود، أي أن الخوف: شعور يتعلق بالضرر المنتظر، والخشية: حالة تنشأ عند وقوع الضرر المنظور .

وهذا الذي أشار إليه " أبو هلال " في معنى الخوف أشار إليه الراغب في تفسير قوله تعالى: " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ " ( سورة فاطر: ٢٨ ) . فقال: عبر بالخشية في جانب العلماء لتيقنهم بعظمة الله وعلمهم بجلاله، ومثله: " مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ " ( سورة ق: ٣٣ ) أى خاف خوف المتيقن العالم<sup>(٣٩)</sup> .

وهذه الملاحظات الدقيقة في الفرق بين دلالتها معتبرة في الآيات التي تعرضت لذكرها في القصص الآتية:

أ- قصة " موسى وعبوره البحر ": في قوله تعالى: " وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى " ( طه: ٧٧ ) .

ففي جانب توقع الخطر من لحاق فرعون بهم وإيقاعه بهم قال له: (لا تخاف) بشارة له بالأمان والنجاة وأنه لا يقع له مجرد الشعور بالخوف من أن يدركه فرعون ويؤذيه، وليشعره بأن أمر فرعون هين وخطره ضعيف ..

وفي جانب خطر الغرق قال (ولا تخشى) لأن الشعور بالخطر عند قوم يسرون وسط الماء أمر عظيم وخطر ومتيقن منظور، فكان التعبير بقوله (ولا تخشى) تعبيراً مناسباً ليقنع كل مظاهر الخوف من نفوسهم، ولذا حذف المخشى لتذهب النفس فيه كل مذهب، فلا يترك له مصدراً يخشاه ..

ب- وقوله تعالى في قصة "يوسف": "وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّبَابُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ" (سورة يوسف: ١٣) ..، حيث عبر بالخوف دون الخشية ليفيد أن ذلك إنما كان منه على سبيل التوقع والشك لا على سبيل التيقن والحزم .

ج- وقوله تعالى في قصة "موسى والعبد الصالح": "وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا" (الكهف: ٨٠).

عبر بالخشية دون الخوف ليفيد أن ذلك إنما كان من العبد الصالح على أساس من علمٍ ويقينٍ لأن قتل النفس لا يقع لمجرد خوف من خطر ضعيف مظنون (").

### - الحية .. والجان ... والشعبان

فقد وصف القرآن بها عصا موسى عليه السلام في مقامات مختلفة .. وملحظ التدبير أن المشبه فيها شيء واحد والمشبه به شيء واحد كذلك، اختلفت أساؤه اختلاف ترادف لا اختلاف تباين .. وبدهي أن هذا الاختلاف يتوافق مع الاختلاف في جهة الإلحاق المرادة في ملمح التشبيه ..

فالحية: اسم لما عظم من الأفاعي، واشتقاقه من الحياة أو من التحوي بمعنى التجمع والتلوي، ومنه سميت المعى حوايا لتجمعها والتوائها .. وقد شَبَّهت عصا موسى بالحية لاكتساب هذه المعاني في قوله تعالى: "وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى" (طه: ١٧-٢٠).

فهذه هي الحالة الأولى التي يتعرف موسى عليه السلام على مظهر المعجزة في عصاه، وقد أراد الله أن يطلعه على هذا السرّ ليكون على خبر منه، فهي ليست عصا يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه، وإنما هي معجزة رسالة وبرهان رسول، فقد كانت في يمينه عصا جافة ميتة فإذا هي تتحول بقدرة الإعجاز إلى حياة تتحرك ومخلوق يسعى ..

" وإذا تدبرنا لفظ " حية " أوحى لنا بالمقابلة المستورة بينها وبين كلمة " عصا " وهي مقابلة تقوم برهاناً على الإعجاز حين تصور لنا مظاهر الموت في العصا مشاهد حياة تتحرك وتسعى .. وبهذا يكون لفظ " حية " أصدق الأسماء الثلاثة تعبيراً عن معناه في مقام السياق " (١) .

أما لفظ " جان "، فقد جاء يلائم مقامه في قوله تعالى: " وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا " ( النمل: ١٠ ؛ القصص: ٣١ ) .

إن الجان اسم لما دقّ من الأفاعي وخف، وهو في تصاريفه يدور حول معاني الخفة والرشاقة المصحوبة بالعجب والخيلاء (٢)، ولهذا جاء مناسباً لكلمة " تهتز " في التشبيه ليعطى التصور الدقيق لحركة العصا حين تحولت إلى أفعى دقيق الجسم خفيف الحركة يتراقص في استعراض للرشاقة يأخذ بالألباب (٣) .

ثم يأتي لفظ " ثعبان " في موضعه من قوله تعالى: " فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ " ( سورة الأعراف: ١٠٧ ؛ الشعراء: ٣٢ ) . وهو لفظ يدل على تفجّر الحركة وسرعة انسياها وأصله من ثعب الماء إذا تفجر وانساب، وهو أيضاً يدل على معنى الضخامة والفخامة، ومنه قيل: الأثعبان للوجه الضخم، وبه سُمّي الثعبان لضخامته .

فلفظ " ثعبان " بدلالته على هذه المعاني أنسب الأسماء الثلاثة بالبيان في المقام الذي جاء فيه، وهو مقام تحدّ ونزال جمع فيه فرعون الأجناد، وحشد له السحرة والحواة فسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، وقال لموسى متحدياً: إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين، فألقى موسى عصاه

فتحولت إلى ثعبان ضخيم مهول ينساب في حركة سريعة وانقباض خاطف فليلقف ما يأفكون، وبهذا تصدق الآية وتحقق المعجزة ويقول السحرة آمناً برب العالمين .

فالموقف على هذا النحو من التأزم والشدة لا يناسبه إلا أن تكون العصا على هيئة الثعبان ضخامة منظر، وسرعة انقباض وقوة افتراس ليتحقق جو الرعب والرهبه فتكون الغلبة ويتأكد العجز<sup>(١١)</sup>.

وهكذا يكون كل واحد من الأسماء الثلاثة قد جاء تعبيراً دقيقاً يصور حالة خاصة في مقام خاص ولو أن واحداً من هذه الأسماء الثلاثة جاء في موضع صاحبه لاختل هذا التناسب المحكم البديع .

وهكذا يتأكد لنا من هذا البيان الواضح من لغة القصص القرآني بما لا يدع مجالاً للشك أن لغة القرآن لا تقرّ الترادف بمعناه العام، وإنما تحتفظ لكل لفظة منه بمقامها الخاص ومعناها المميز، الأمر الذي يجعل من ألفاظه مهما ترادفت وتقاربت ذوات مستقلة لا تتماثل ولا تتكرر ولا تتبادل مواضعها في الدلالة أو السياق .

#### ج - مشاكلة اللفظ للمعنى:

من الأسرار التي استدعت انتباه الباحثين ما اصطلاح على تسميته بمشاكلة اللفظ للمعنى، فالمعنى إذا كان جزلاً كان اللفظ كذلك وإن كان " الزركشى " في البرهان يعكس القضية حين يقول: " ومتى كان اللفظ جزلاً كان المعنى كذلك " "... والأمثلة التي توضح لنا هذه المشاكلة كثيرة، وسنعرض منها ما هو خاص بالقصة القرآنية:

١ - يقول الله تعالى في قصة عيسى عليه السلام: " إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " (آل عمران: ٥٩). ولم يقل من " طين " كما أخبر به سبحانه في غير موضع: " إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ " (سورة ص: ٧١) إنما عدل عن الطين الذي هو مجموع الماء والتراب إلى ذكر مجرد التراب لمعنى

لطيف، وذلك أنه أدنى العنصرين وأكثرهما، لما كان المقصود مقابلة من ادعى في المسيح الإلهية أتى بما يصغر أمر خلقه عند من ادعى ذلك، فلهذا كان الإتيان بلفظ التراب أمس في المعنى من غيره من العناصر، ولما أراد سبحانه الامتتان على بنى إسرائيل أخبرهم أن يخلق لهم من الطين كهيئة الطير، تعظيماً لأمر ما يخلقه بإذنه، إذ كان المطلوب الاعتداد عليهم بخلقه ليعظموا قدر النعمة به .

ومنه قوله تعالى: " وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ " (سورة النور: ٤٥). فإنه سبحانه إنما اقتصر على ذكر الماء دون بقية العناصر، لأنه أتى بصيغة الاستغراق، وليس في العناصر الأربع، ما يعم جميع المخلوقات إلا الماء، ليدخل الحيوان البحري فيها ..

٢ - قوله تعالى في قصة يوسف: " قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ " ( يوسف: ٨٥) .. لقد نقلت الآية مواقف غريبة، وقفها أبناء يعقوب من أبيهم وأخويهم، فقد ألقوا " يوسف " في الجب وجاءوا على قميصه بدم كذب، وجاءوا أباهم عشاء يبكون، وكذبوا على أبيهم، ونالوا منه، واتهموا أخاهم بالسرقة، وجاءوا أباهم يزفون إليه خبر اتهامه مستشهدين بأهل القرية، فسكت الأب على ألم ومضض، وتولى عنهم وتذكر يوسف وتأسف عليه، وبكى حتى فقد بصره .. وقد حملت الآية هذه الغرابة من جهات كثيرة:

أ- ف "تاء" القسم أغرب أدوات القسم وهي لا تجيء إلا في المواقع الغريبة على عكس الواو والباء .

ب- و "كان" أكثر استعمالاً من "فتى"، وفتى لا تستعمل بدون "ما" وجيئها بدونها غريب أيضاً

ج- - وقد أتت الآية بأغرب ألفاظ الهلاك، وهو " الحَرَض " .. فمواقف بنى إسرائيل الغريبة حملتها الألفاظ التي جاءت غريبة من حيث مجيء القسم بالتاء دون الواو والباء، ومجيء " فتى " دون " كان " واستعمالها بدون " ما "، وكذلك التعبير " بالحَرَض " دون الهلاك<sup>(١١)</sup>

والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام، وله نظائر في لغتهم، وكم من لفظه غريبة عندهم لا تحسن إلا في موضعها، ولا يكون حسنها على غرابتها إلا أنها تؤكد المعنى الذي سبقت له بلفظها وهيئة منطقتها، فكأن في تأليف حروفها معنى حسيًا، وفي تألف أصواتها معنى مثله في النفس..

٣- ومن الألفاظ التي لم يستخدمها القرآن لفظة (الآجر) وليس فيها من خفة التركيب إلا الهمزة، وسائرهما نافر متقلقل لا يصلح مع هذا المدّ في صوت ولا تركيب على قاعدة نَظْم القرآن، فلما احتاج إليها لفظها ولفظ مرادفها وهو (القرمد) وكلامها استعمله فصحاء العرب ولم يعرفوا غيرهما، ثم أخرج معناها بالطف عبارة وأرقها وأعذبها. وساقها في بيان مكشوف يفضح الصبح، وذلك في قوله تعالى: " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ " (سورة القصص: ٣٨).. فلننظر هل نجد في سرّ الفصاحة وفي روعة الإعجاز أبرع أو أبداع من هذا؟ لننظر ونتأمل كيف عبر عن الآجر بقوله: " فأوقد لي ياهامان على الطين " ولننظر موقع هذه القلقلة التي هي في الدال من قوله ( فأوقد ) وما يتلوها من رقة اللام، فإنها في أثناء التلاوة مما لا يطاق أن يعبر عن حسنه، وكأنها تتزع النفس انتزاعا..

وليس الإعجاز في اختراع تلك العبارة فحسب، ولكن ما ترمي إليه إعجازاً آخر، فإنها تحقر شأن فرعون، وتصف ضلاله، وتسفه رأيه، إذ طمع أن يبلغ الأسباب، أسباب السماوات فيطلع إلى إله موسى، وهو لا يجد وسيلة إلى ذلك المستحيل ولو نصب الأرض سُلماً، إلا شيئاً يصنعه هامان من الطين (٣٨) .

٤- وما يشد في القرآن الكريم حرف واحد عن قاعدة نظمه المعجز، حتى أننا لو تدبرنا الآيات التي لا نقرأ فيها إلا ما يسرده من الأسماء الجامدة، وهي بالطبع فطنة أن لا يكون فيها شيء من دلائل الإعجاز، فإننا نرى إعجازها أبلغ ما يكون في نظمها وجهات سردها، ومن تقديم اسم على غيره أو تأخيره عنه، لنظم حروفه

ومكانه من النطق في الجملة، أو لنكتة أخرى من نكت المعانى التي وردت فيها الآية بحيث يوجد شيئاً فيها ليس فيه شيء، ولنتأمل قوله تعالى في قصة " ضربات مصر ": " فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ " (سورة الأعراف: ١٣٣).

فإنها خمسة أسماء، أخفها في اللفظ ( الطوفان والجراد والدم ) وأثقلها ( القمل والضفادع ) فقدّم ( الطوفان ) لمكان المدّين فيها، حتى يأنس اللسان بخفتها، ثمّ ( الجراد ) وفيها كذلك مدّ، ثم جاء باللفظين الشديدين مبتدئاً بأخفها في اللسان وأبعدها في الصوت لمكان تلك الغنة فيه، ثم جئ بلفظة ( الدم ) آخرأ، وهى أخفّ الخمسة وأقلها حروفاً، ليسرع اللسان فيها ويستقيم لها ذوق النظم ويتم بها هذا الإعجاز في التركيب " (٨) .

٥ - ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها وموقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب أو مايجرى مجرى الحشو والاعتراض، ومن الكلمات التي يقول النحاة أنها زائدة قوله تعالى في قصة يوسف: " فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا " (سورة يوسف: ٩٦) ، فإن النحاة يقولون إنها " أن " زائدة، أى في الأعراب، فيظن أنها كذلك في النظم ويقاس عليها، مع أن في هذه الزيادة لونا من التصوير، لو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته، فإن المراد هو تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف ومجيئه، كبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليها السلام، وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب تؤكدهما، وتصف الطرب لمقدمه واستقراره، غنة هذه النون في الكلمة الفاصلة، وهى " أن " في قوله: " أن جاء " (٩) .

ومنه: " مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ " ( سورة الأعراف: ١٢ )، بدليل الآية الأخرى: " مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ " ( سورة ص: ٧٥ )، ليس المعنى: ما منعك من ترك السجود؟ فإنه ترك، فلا يستقيم التوبيخ عليه .. وقيل: ليست بزائدة من وجهين:

أحدهما: أن التقدير ما دعاك إلى ألا تسجد؟ لأن الصارف عن الشيء داعٍ إلى تركه، فيشتركان في كونها من أسباب عدم الفعل.

**الثاني: أن التقدير ما منعك من ألا تسجد.**

وهذا أقرب مما قبله، لأن إبقاء المنع على أصله، وعدم زيادتها أولى لأن حذف حرف الجر مع "أن" كثير كثرة لاتصل إلى المجاز، والزيادة في درجتها.. بالإضافة إلى أن في زيادتها تأكيد الإثبات، فإن وضع "لا" نفي ما دخلت عليه، فهي معارضة للإثبات، ولا يخفى أن حصول الحكم مع المعارض أثبت مما إذا لم يعترضه المعارض؛ أو أسقط معنى ما كان من شأنه أن يسقط ("

بهذا الذي قدمنا ونحوه مما أمسكنا عنه ولم نستقص في أمثلته لأنه أمر مطرد - بالإضافة إلى ما لم نُحط به خُبراً - نعرف أن القرآن على العموم - والقصص فيه على الخصوص - أعجز في اللغة بطريقة النظم وهيئة الوضع.. فكل كلمة منه ما دامت في موضعها فهي من بعض إعجازه، ومن هنا ينساق بنا الكلام إلى القول في النوع الثالث:

**ثالثاً: الجمل وتركيبها:**

الجملة هي مظهر الكلام، وهي الصورة النفسية للتأليف الطبيعي، إذ يُجمل بها الإنسان هذه المادة المخلوقة في الطبيعة، إلى معان تصوّرها في نفسه أو يصفها؛ تري النفس هذه المادة وتحسّها. علي حين قد لا يراها المتكلم الذي أهدفها لكلامه غرضاً، ولكنه بالكلام كأنه يراها.. هذا من ناحية التأليف عند البشر، أما في القرآن عندما ننظر إلى جملته القصصية من جهة تركيبها، نجد أنه انتظم أسباب الإعجاز من الصوت في الحرف، إلى الحرف في الكلمة، إلى الكلمة في الجملة، حتى يكون الأمر مقدراً علي تركيب الحواس النفسية في الإنسان تقديراً يطابق وضعها وقواها وتصرفها، وذلك إيجاد خلقي لا قبّل للناس به ولم يتهياً، إلا في هذه العربية عن طريقة المعجزة التي لا تكون معجزة حتى تحرق العادة، وتفوت المؤلف وتعجز الطوق، وإنما امتنع أن يكون في مقدور الخلق، لأنه تفصيل للحروف على النحو

الذي يأخذه فيه تركيب الحياة من تناسب الأجزاء في الدقيق والجليل، وقيام بعضها ببعض لا يغني منها شيء عن شيء في أصل التركيب وحكمته .. وروح التركيب هذه، لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن، وبها انفرد نظمه وخرج مما يطيقه الناس ولولاها لم يكن بحيث هو كأنها وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين، إذ نراه ينظر في التركيب إلى نَظْم الكلمة وتأليفها، ثم إلى تأليف هذا النَظْم: فمن ههنا تعلق بعضه على بعض، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة، هي صفة إعجازه في جملة التركيب، وإن كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحي العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب<sup>(١٠)</sup>. كالمواعظ والحكم والتعليم، وضرب الأمثال، هذا غير القصص القرآني الذي لا تخلو قصة من قصصه إلا وضمير الجلالة للمتكلم يحرسها ويحميها من فطنة أن تكون من كلام أحد غير الله سبحانه .

" وإذا كان علماء المعاني يجعلون البلاغة درجات فإنهم مقرّون دون جدال أن صياغة العبارة القرآنية في الطرف الأعلى من البلاغة الذي هو الإعجاز عينه " (١١) ... حقيقة أن القرآن كان علم البلاغة عند العرب، ثم صار بعدهم بلاغة هذا العلم .. إذاً لا يحق القول إن القرآن جاء بالاستعارة أو بالمجاز لأنه مجاز، أو بالكناية لأنها كناية، أو ما يطرد مع هذه الأسماء والمصطلحات إنما أريد به وضع معجز في نسق ألفاظه، وارتباط معانيه على وجوه السياسيتين من البيان والمنطق، فجري على أصولهما في أرقى ما تبلغه الفطرة اللغوية على إطلاقها في هذه العربية، فهو يستعير حيث يستعير، ويتجوّز حيث يتجوّز، ويطنب ويوجز ويؤكد ويعترض ويكرّر إلى آخر ما أحصي في البلاغة ومذاهبها، لأنه لو خرج عن ذلك لخرج من أن يكون معجزاً في جهة من جهاته ولاستبان فيه ثمة نقص يمكن أن يكون في موضعه ما هو أكمل منه وأبلغ في القصد والاستيفاء، فما البلاغة كلها إلا بعض الوسائل في التشبيه إليه، فهي تعطى القدرة على النظر والفهم ولكنها لا تعطى بمقدار ذلك في العمل والصنعة، ولذلك سوف نُجمل تفصيلاً أو نشير إلى بعض الوجوه المعجزة في لغة القصة القرآنية من الناحية البلاغية، فالقرآن الكريم ليس كتاباً يتخير منه فيستجاد

بعضه، ويفصح عن بعضه، إنما هو وحى بمعانيه وألفاظه، فهو بائن بنفسه من الكلام الإنساني، ولا بد أن يكون فائدة للناس كافة ليعملوا، وصادقا على الناس كافة ليستفيدوا، ومعجزاً للناس كافة ليصدقوا<sup>(٤٣)</sup>.

### الإعجاز في بلاغة الجملة في القصة القرآنية:

#### ١- الإجمال:

وله وجهاته الكثيرة في تركيب الجملة منها:

أ- أن يعرض من ألفاظ مختلفة مشتركة وقعت في التركيب، كقوله تعالى في قصة موسى: "وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً" (سورة القصص: ٢٣). بمعنى الجماعة، وفي قوله عن إبراهيم عليه السلام: "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً" (سورة النحل ١٢٠) بمعنى الرجل الجامع للخير المقتدى به. وبمعنى الدين في قوله تعالى: "إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ" (الزخرف: ٢٢). وبمعنى الزمان في قوله تعالى: "وَأَذَكَّرَ بَعْدَ أُمَّةٍ" (يوسف: ٤٥).

ب- حذف في الكلام: كقوله تعالى في قصة قوم صالح: "وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً" (سورة الإسراء: ٥٩)، أي آية مبصرة، فظلموا أنفسهم بقتلها، وليس المراد أن الناقة كانت مبصرة لا عمياء..

ج- من جهة عدم استعماله الآن: كقوله تعالى في قصة صاحب الجنتين: "فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ" (سورة الكهف: ٤٢) أي نادما.

د- من جهة التقديم والتأخير: كقوله تعالى في قصة إبراهيم: "حَتَّىٰ تُوْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ" (سورة الممتحنة: ٤)، معناه "قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم " .. وهناك ما قدم والنية به التأخير مثل قوله تعالى في قصة: إبراهيم والملائكة: "فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أُزِيقُنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ وَأَمْرُهُ قَائِمَةٌ فَضَجَّكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا

بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ " (سورة هود: ٧٠-٧٢). وكان لهذا التقديم وجهان:

أحدهما: يعتمد على التفسير اللغوي وهو: ضحكت المرأة. حاضت وقد اعتمد البعض عليه في تفسير الآية. وقيل أصله: فبشرناها بإسحاق فضحكت: أي حاضت بعد الكبر عند البشري، فعادت إلى عادات النساء من الحيض والحمل والولادة<sup>(٥١)</sup>.

والثاني: يعتمد على التفسير النفسي: فقد روى "الأزهري" عن "الفراء" في تفسير هذه الآية: لما قال رسل الله عز وجل لعبدته وخليته إبراهيم: لا تخف، ضحكت عند ذلك امرأته، وكانت قائمة عليهم، وهو قاعد، ضحكت فبشرت بعد الضحك بإسحاق، وإنما ضحكت سروراً بالأمن، لأنها خافت كما خاف إبراهيم<sup>(٥٢)</sup> ويقول الأستاذ العقاد: هنا خوف فاطمئنان بشري مفاجئة على غير انتظار، فتعجب . لا تملك سارة أن تجهر به. فتقول: إن هذا لشيء عجيب ...

ويقول إن كل عوامل الضحك النفسية التي ظهرت للباحثين النفسانيين في تفسيراتهم - تعرضها هذه الآية الكريمة على نسقها المتتابع فتأتي بالضحك حيث يأتي الضحك مطرداً في مواضعه المختلفة من تحوّل الشعور: طمأنينة بعد خوف، ومعرفة بعد نكران، وبشارة بما ليس في الحسبان من الولادة وبعد سنّ اليأس وخيبة الأمل في الذرية زمناً طويلاً تعتلج فيه النفس بأشتات من دواعي الحزن والغراء والغيرة والتسليم.. ولا تغني هنا كلمة "سرت"، أو "كلمة" استبشرت "أو" فرحت"، في مكان كلمة "ضحكت". فإن الضحك هو الأثر الملائم لهذه الحالة التي تشابكت فأصبحت في قرارة النفس حالات متناقضات<sup>(٥٣)</sup>

## ٢ - تنوع أسلوب الخطاب: ويأتي على أوجه كثيرة منها:

أ - خطاب النوع: نحو "يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ" (سورة البقرة: ٤٠)، والمراد "أبناء يعقوب" من الكتابيين ولم يذكروا في القرآن إلا بهذا، دون "يابني يعقوب". وسرّه أن القوم لما حُوطبوا بعبادة الله، وذكروا بدين أسلافهم، موعظة لهم وتنبهاً من



## ب - خطاب الاثنين بلفظ الواحد:

كقوله تعالى في قصة موسى: " قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى " (سورة طه: ٤٩)،  
أي " وهارون " وفيه وجهان:

أحدهما: أنه أفرد موسى عليه السلام بالنداء بمعنى التخصيص والتوقف إذ كان  
هو صاحب عظيم الرسالة وكريم الآيات .

والثاني: لما كان هارون أفصح لساناً منه، على ما نطق به القرآن ثبت عن جواب  
الخصم الألد . ومثله في قصة آدم: " فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى " (سورة طه:  
١١٧). وفيه أيضاً وجهان:

أحدهما: إنها أفردته بالشقاء من حيث كان المخاطب أولاً والمقصود في الكلام .

والثاني: لأن الله جعل الشقاء في معيشة الدنيا في حيز الرجال، ويحتمل الاغضاء  
عن ذكر المرأة ولهذا قيل: من الكرم ستر الحرم ..

وقوله: " فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ " (الشعراء: ١٦)، فهما اثنان  
ولكنهما يذهبان في مهمة واحدة برسالة واحدة . فهما رسول رب العلمين<sup>(٥٨)</sup> .

وقوله تعالى في قصة آدم: " فَتَابَ عَلَيْهِ " (البقرة: ٣٧). ولم يقل " عليهما " اكتفاء  
بالخبر عن أحدهما بالدلالة عليه<sup>(٥٩)</sup> .

## ج - خطاب الجمع بعد الواحد

كقوله تعالى في قصة موسى: " وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ  
بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ " (يونس: ٨٧). فثنى في  
الأول، ثم جمع ثم أفرد، لأنه خوطب أولاً موسى وهارون، لأنها المتبوعان، ثم  
سبق الخطاب عاماً لهما ولقولهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأنه واجب عليهم، ثم  
خصّ موسى بالبشارة تعظيماً له ...

كقوله تعالى في قصة صالح لما هلك قومه: " فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُؤْمِنُونَ النَّاصِحِينَ " (الأعراف: ٧٩).  
خاطبهم بعد هلاكهم، إما لأنهم يسمعون ذلك كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بأهل بدر وقال: " والله ما أنتم بأسمع منهم "، وإما للاعتبار كقوله: " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا " (سورة العنكبوت: ٢٠).

### ٣ - الكناية:

أ - إن للقرآن الكريم في قصصه المثل الأعلى والمنزلة التي تعجز عنها أساليب الأدباء، ومعلوم أن لكتاب الله تعالى غاية أخلاقية لها مكانها البارز بين الغايات السامية التي يحققها ذلك الكتاب المعجز، وإذا كان هذا شأنه فلا بد من أن تتفق ألفاظه وأساليبه وصوره البيانية مع هذه الغاية، وهذا يفسر لنا خلوه تماماً من كل ما يجرح الذوق أو يחדش الحياء، أو يتعارض مع التربية الخلقية التي يغرسها ذلك الكتاب الكريم في النفوس المؤمنة ... فلننظر إلى الأدب العالي والذوق الرفيع، وصور الكناية التي تؤدي الغرض أداءً أبلغ من التصريح، في قصة يوسف وامرأة العزيز حيث توالى الكنايات وأخذ بعضها بعناق بعض، لأن الحقائق المعبر عنها بها مما يجب ستره وتغطيته، فأدت الكناية دورها أبلغ أداءً: " وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ " (يوسف: ٢٣). فقد كنى بالمرادة عن الفحشاء التي طلبتها هذه المرأة منه، وقد عبر عن هذا المعنى بعبارة مهذبة أغنت عن القبيح<sup>(١١)</sup>.

ومن لطيف الكنايات وأحسنها قوله تعالى في القصة عن مريم " وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا " (سورة الأنبياء: ٩١). وهي كناية عن فرج القميص، أي لم يعلق ثوبها ريبة، فهي طاهرة الأنواب، وفروج القميص أربعة: الكتمان، والأعلى، والأسفل، وليس المراد غير هذا، فقد أخطأ من توهم هنا الفرج الحقيقي، فإن القرآن أنزه معنى، وألطف إشارة، وأملح عبارة من أن يريد ما ذهب إليه وهم الجاهل، لاسيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس، فأضيف القدس إلى القدوس، ونزّهت

القائنة المطهرة عن الظن الكاذب والحدس<sup>(١١)</sup> .. إذا فإحصان الفرج هنا رمز للطهارة، وإيحاء لعفة، وإشارة إلى تكامل الأنموذج الإنساني، في أم عيسى عليهما السلام.

ب - ومن صور الكناية في القصة القرآنية " التعريض والتلويح "، وأما التعريض: فإنه الدلالة على المعنى عن طريق المفهوم، وسُمِّي تعريضاً لأن المعنى باعتباره يُفهم من عرض اللفظ، أي من جانبه، ويسمى التلويح، لأن المتكلم يلوح منه للسامع ما يريده، كقوله تعالى في قصة " إبراهيم " قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ " ( الأنبياء: ٦٣ )، لأن غرضه بقوله: " فَاسْأَلُوهُمْ " على سبيل الاستهزاء، وإقامة الحجة عليهم بما عرض لهم به، من عجز كبير الأصنام عن الفعل، مستدلاً على ذلك بعدم إجابتهم إذا سُئلوا، ولم يرد بقوله: " بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا "، نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، فدلالة هذا الكلام عجز كبير الأصنام عن الفعل بطريق الحقيقة .

ج - ومن صور الكناية في القصة القرآنية أيضاً: التوجيه، وهو ما احتمل معنيين ويؤتى به عند فطنة المخاطب، كقوله تعالى في قصة ميلاد موسى " فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ " (القصص: ١٢)، فإن الضمير في ( له ) يحتمل أن يكون لموسى، وأن يكون لفرعون . وبهذا تخلصت أخت موسى من قولهم: (أنك عرفته)، فقالت: أردت: " ناصحون للملك " والرد على من اعترض عليه بأن هذا في لغة العرب لا في كلامها، أن الحكاية مطابقة لما قالته؛ وإن كانت بلغةٍ أخرى<sup>(١٢)</sup>

٤ - الإيضاح بعد الإبهام: ليرى المعنى في صورتين، أو ليكون بيانه بعد التشوّف إليه: لأنه يكون ألدّ وأشرف عندها، وأقوى لحفظها وذكرها، كقوله تعالى في قصة موسى: " وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَتْهَا بِعَشْرِ فَنَمَ مِيقَتَ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً " سورة الأعراف من آية ١٤٢، وأعاد قوله: " أربعين " وإن كان معلوماً من " الثلاثين " و " العشر " أنها أربعون " . لنفي اللبس، لأن العشر لما أتت بعد الثلاثين، التي هي نص

في المواعدة دخلها الاحتمال أن تكون من غير المواعدة فأعاد ذكر " الأربعين " نفيًا لهذا الاحتمال، وليعلم أن جميع العدد للمواعدة.

وإن قال قائل: إذا كان زمن المواعدة أربعين فليَمَ كانت " ثلاثين " ثم عشرًا؟

أجاب ابن عساكر<sup>(٣٧)</sup>: بأن العشر إنما فصل من أولئك؟ ليتحدّد قرب انقضاء المواعدة، ويكون فيه متأهباً مجتمع الرأي، حاضر الذهن؛ لأنه لو ذكر " الأربعين " أولاً لكانت متساوية، فإذا جعل العشر فيها إتماماً لها استشعرت النفس قرب التمام، وتجدد بذلك عزم لم يتقدم..

ولكن المواعدة في سورة البقرة وردت أربعين ليلة ولم يفصل العشر منها: " وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً " ( سورة البقرة: ٥١ ) .. وذلك لأنه قصد في " الأعراف " ذكر صفة المواعدة والإخبار عن كيفية وقوعها فذكر على صفتها، وفي " البقرة " إنما ذكر الامتنان على بنى إسرائيل بما أنعم به عليهم فذكر نعمه عليهم جملة، فقال: " وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ " ( البقرة: ٥٠ )، " وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ " ( البقرة: ٤٩ ) .

٥ - الخروج على خلاف الأصل: فالأصل في الأسماء أن تكون ظاهرة، وأصل المحدث عنه كذلك . والأصل أنه إذا ذكر ثانياً أن يذكر مضمراً للاستغناء عنه بالظاهر السابق، والخروج على الأصل في تركيب الجملة القرآنية له مقاصد عظيمة منها:

أ - قصد التعظيم: كقوله تعالى في قصة صاحب الجنتين: " لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا " ( الكهف: ٣٨ )، فأعاد ذكر " الرب " لما فيه من التعظيم والهضم للخصم . ومثله في قصة مريم: " وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ " ( آل عمران: ٣٧ ) .

ب - إزالة الإهانة والتحقير: كقوله تعالى في قصة موسى وفرعون: " وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ " ( غافر: ٣٧ )

ج- إزالة اللبس حيث يكون الضمير يوهم أنه غير المراد: كقوله تعالى في قصة يوسف: " ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ " ( يوسف: ٧٦ )، إنها حسن إظهار الوعاء مع أن الأصل " فاستخرجها منه " لتقدم ذكره، لأنه لو قيل ذلك لأوهم عود الضمير على الأخ، فيصير كأنه الأخ مباشر لطلب خروج الوعاء، وليس كذلك لما في المباشرة من الأذى الذي تأباه النفوس، الآية، فأعيد لفظ الظاهر لنفي هذا ..

وإنما لم يضمم الأخ فيقال: " ثم استخرجها من وعائه " لأمرين:

أحدهما: أن ضمير الفاعل في " استخرجها " ليوسف عليه السلام، فلو قال " من وعائه " لتوهم أنه يوسف، لأنه أقرب مذكور فأظهر لذلك ..

والثاني: أن الأخ مذكور مضاف إليه، ولم يذكر فيما تقدم مقصوداً، بالنسبة الإخبارية، فلما أحتج إلى إعادة ما، وأضيف إليه أظهره أيضاً

د - قصد العموم: كقوله تعالى في قصة " موسى والعبد الصالح: " حَتَّى إِذَا أَتَيْنَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا " ( الكهف: ٧٧ )، ولم يقل " استطعهم " للإشعار بتأكيد العموم، وأنها لم يتركا أحداً من أهلها إلا استطعاهم وأبى، ومع ذلك قابلهم بأحسن الجزاء، وفيه التنبيه على محاسن الأخلاق، ودفع السيئة بالحسنة .

وقوله تعالى في قصة يوسف: " وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِلَّا النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ " ( سورة يوسف: ٥٣ )<sup>(١١)</sup>، فإنه لو قيل: إنها لأمارة " لاقتضى تخصيص ذلك، فأتى بالظاهر ليدل على أن المراد التعميم، مع إنه برئ من ذلك بقوله بعده: " إلا مارحم ربي "، وقوله: " إن ربي غفور رحيم "، ولم يقل " إنه " إما للتعظيم وإما للاستلذاذ.

٥ - الاستثناء والاستدراك: ويبدو واضحاً في تركيب الجملة كقوله تعالى في قصة آدم: " فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ " ( الحجر: ٣٠-٣١ )، فإن فيه معنى زائداً على الاستثناء، هو تعظيم أمر الكبيرة التي أتى بها إبليس من كونه خرق إجماع الملائكة، وفارق جميع الملائكة الأعلى بخروجه مما دخلوا فيه من السجود لآدم ..

ومنه قوله تعالى في قصة نوح: " فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا " (العنكبوت: ١٤) فإن في الإخبار عن المدة بهذه الصيغة تهويلاً على السامع، ليشهد عذر نوح عليه السلام في الدعاء على قومه . وحكمة الإخبار عن المدة بهذه الصيغة تعظيم للمدة، ليكون أول ما يباشر السمع ذكر " الألف " واختصار اللفظ، فإن لفظ القرآن أخصر من تسعمائة وخمسين عاماً ولأن لفظ القرآن يفيد حصر العدد المذكور ولا يحتمل الزيادة عليه ولا النقص ..

٦ - الاحتراس: وهو أن يكون الكلام محتملاً لشيء بعيد فيؤتى بها يدفع ذلك الاحتمال مثل قوله تعالى على لسان النملة في قصة سليمان: " لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ " ( النمل: ١٨) . فقوله: " وهم لا يشعرون " احتراس بين أن من عدل سليمان وفضل جنوده أنهم لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بأن يشعرون بها . وقد قيل: إنها كان تبسم سليمان سروراً بهذه الكلمة منها، ولذلك أكد التبسم بالضحك، لأنهم يقولون: تبسم كتبسم الغضبان، لينبه على أن تبسمه تبسم سرور ..

وكذا قوله تعالى في قصة الطوفان: " وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " ( سورة هود: ٤٤) فإن سبحانه ما أخبر بهلاك من هلك بالطوفان، عقبهم بالدعاء عليهم، ووصفهم بالظلم، ليعلم أن جميعهم كان مستحقاً للعذاب، احتراس من ضعف يوهم أن الهلاك بعمومه ربما شمل من لا يستحق العذاب، فلما دعا على الهالكين، ووصفهم بالظلم على استحقاقهم لما نزل بهم وحل بساحتهم، مع قوله أولاً: " وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ " ( سورة هود: ٣٧) .

وأعجب احتراس وقع في القصص القرآني قوله تعالى مخاطباً لنيه عليه الصلاة والسلام: " وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ " (القصص: ٤٤) .....

وقال عن موسى: " وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ " ( سورة مريم: ٥٢)، فلما نفي سبحانه عن رسوله أن يكون بالمكان الذي قضى لموسى فيه الأمر عرف المكان

بالغربي، ولم يقل في هذا الموضع " الأيمن " كما قال " وندينه من جانب الطور الأيمن: أبدأً مع النبي صلي الله عليه وسلم أن ينفي عنه كونه بالجاني الأيمن، أو يسلب عنه لفظاً مشتقاً من اليمن، أو مشاركاً لمادته، ولما أخبر عن موسى عليه السلام ذكر الجانب الأيمن تشريفاً لموسى، فراعي في المقامين حسن الأدب معها تعليماً للأمة، وهو أصل عظيم في الأدب في الخطاب<sup>(٧)</sup>.

وعلى هذا نستطيع - بعد الذي قدمنا - أن نكتفي بهذه الإشارة من تلك الجزئيات المعدودة، من نواحي الإعجاز في باب القصص القرآني من ناحية البلاغة .. ذلك الإعجاز الذي منح اللفظ العربي امتداداً في المدلول، فأحدث ثورة لغوية لم تعرفها لغات البشر، ويمكن أن نلخص نواحي الإعجاز في نقاط ثلاث:

أولها: أنه قد حدث بتأثير كتاب علي لغة، وهو أمر لم يحدث في تاريخ الإنسان منذ عرف اللغة.

وثانيها: أن أساس التحدي في الإعجاز هو الكلمة بكل بنيتها، فقد نجد في القرآن كلمة علي حرف واحد، أفادت من الاستعمال القرآني تعدداً في المعني، وسعة في الاستعمال، وقد تكون علي حرفين وثلاثة، وأربعة، وخمسة، وهذا هو المقياس الكمي الذي وقفت عنده بنية الكلمة العربية المجردة.

وثالثها: قابلية اللفظ القرآني لتحمل المزيد من الدلالة، وهو بذلك يمنح العربية مرونة في الأداء ومواكبة لتطور العلم، وقدرة علي استيعاب حقائقه في كل جيل، ولا شك أن ذلك كله يضيف علي بيان القصص تأثير تركيبى عميق ... ندرك منه فصاحة الأسلوب وبلاغة العبارة وسمو المعني والمفهوم، وثراء الفكر والمضمون.

" ولا ننسي أن نذكر فوق ذلك ما قالته الأعرابية - حين أعجب بعض الناس ببعض شعرها - : ( ما ترك لنا القرآن من بيان وهو يقول: " وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ " (سورة القصص: ٧) فقد جمع في آية واحدة بين أمرين ..

ونهيين وبشارتين)، هذا إلى أنها لم تعن بأن تشير في الآية إلى مصطلح القوم في لطف التصوير، وما تقتضيه الدقة في التعبير بالشرط وفي إثارة بعض أدواته علي بعض . وما تقتضيه الدقة في اختيار الفاصلة التي تسير أجراس السورة، أو أنغامها الموسيقية المتوترة " (٣٧) .

### ثانياً: الخصائص الأسلوبية:

ونقصد بالأسلوب تلك الطريقة التي يتم بها التركيب الأدبي للعناصر القصصية، ومما لاشك فيه أن القصة القرآنية تُعدّ أول قصة ملتزمة عرفها الأدب العربي، فإذا تأملنا في الأسلوب الذي قدمت به، وماله من تأثير نفسي وفني، اتضح وجه تسميتها " بالقصة " لا استناداً إلى مدلولها اللغوي فقط، باعتبار أن أصل الاشتقاق للفظ ( قصة ) يلتقي في المعنى مع المدلول الذي انبنى عليه أصل التسمية القرآنية، وهو الإعلام بالنبا " نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ " (الكهف: ١٣) ، أو تتبع الأثر وتقصيه: " وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ " (سورة القصص: ١١) ، بل واعتمادها علي ما في عرضها من طرق فنية .

ولا ننسى أن أسلوب القصص القرآني هو أسلوب التخاطب ومن هنا وضحت في قصصه أساليب الحدث والمشاهدة خاصة في مبدأ القصة (٣٨) .

وهناك خصائص أسلوبية عامة تحقق الغرض الديني للقصة القرآنية، عن طريق جمالها الفني، إذ أن هذا الجمال الفني يجعل ورودها إلى النفس أيسر، ووقعها في الوجدان أعمق، وهذه الخصائص تمثلها بعض الظواهر الفنية التي لها حساب معلوم في الدراسة الفنية للقصة الحرة في عالم الفنون (٣٩) ، منها:

(أ) تنوع طريقة العرض: " إن البيان القرآني يحدّد الغرض من القصة ويسلك له الطريق الذي يوصل إليه، متوسلاً في طريقه إلى غرضه بالوسائل البيانية المناسبة أتم المناسبة. ومن ثم تنوعت الطرائق تبعاً لتنوع الأغراض، واختلفت الوسائل البيانية تبعاً لتنوع الطرائق " (٤٠) .

## ١- التقديم والتمهيد لعرض القصة:

وخير مثال لذلك هي " قصة الخلق "، أو " النشأة الأولى "، فقد ورد في سورة الأعراف تقديم قوي لقصة خلق آدم، تبدأ به السورة: يقول تعالى: " المص كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ " (سورة الأعراف: ١-٢).

إن خطاب الرسول - صلي الله عليه وسلم - هو خطاب لقومه الذين يجاهدون بهذا القرآن .. كل ما يجيء في السورة بعد ذلك من قصص، ومن وصف لرحلة البشرية الطويلة، وعودتها من الرحلة المرسومة، وكل ما يعرض من مشاهد في صفحة الكون وفي يوم القيامة، إنما هو خطاب غير مباشر - وأحياناً مباشر - للنبي صلي الله عليه وسلم وقومه للإنذار والتذكير، كما يشير هذا المطلع القصير ... ولأن الأمر كذلك من الثقل ومن الغرابة، ومن النفرة ومن المقاومة لهذا التغيير الكامل الشامل الذي تستهدفه هذه العقيدة في حياة الناس وتصوراتهم، فإن السياق يباكر القوم بالتهديد القاصم، ويذكرهم بمصائر المكذابين، ويعرض عليهم مصارع الغابرين ... جملة قبل أن يأخذ في القصة المفصل عنهم في مواضعه من السياق: " وَكَمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنًا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ " (الأعراف ٤: ٩) .

وبعد هذه المقدمة تبدأ القصة، تبدأ بالحديث عن التمكين للجنس البشري في الأرض، وذلك بما أودع الله هذا الكون من خصائص وموافقات تسمح بحياة هذا الجنس وتمكينه في الأرض، وبما أودع الله هذا الجنس من خصائص وموافقات متوافقة مع الكون، ومن قدرة علي التصرف إلى نواميسه واستخدامها والانتفاع

بطاقاته ومقدراته وأقواته، " وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ " (الأعراف: ١٠).

وليس هذا إلا التمهيد لعرض قصة النشأة الأولى، وتصوير نقطة الانطلاق للبشرية في رحلتها المرسومة، والسياق يركز في هذه السورة علي هذه النقطة، ويعرض قصة النشأة، ويتخذها كذلك نقطة تعقيب للإنذار والتذكير، المستمدين مما في مشاهدتها وأحداثها من عظات موحية، ومؤثرات عميقة: " وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ " (الأعراف: ١١).

وبهذا المشهد في نقطة الانطلاق يتحدد مصير الرحلة كلها، ومصائر المرتحلين جميعاً.. وتلوح طلائع المعركة الكبرى التي لا تهدأ لحظة طوال الرحلة، بين هذا العدد الجاهر بالعداوة، وبني آدم جميعاً. كما تلوح نقط الضعف في الكائن الإنساني جملة، و منافذ الشيطان إليه ..

ومن ثم يتخذ السياق من المشهد مناسبة للتعقيب الطويل، بالإنذار والتحذير: " يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ " (سورة الأعراف ٢٦-٢٧).

٢- وقد يمهّد للقصة بمقدمة توحى بخاتمها علي نحو ما نري في قصة " يوسف " فأحداثها تبدأ عقب تقديم رؤيا يوسف التي قصها علي أبيه وتنبؤ أبيه بما ينتظره في المستقبل من شأن عظيم " إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيَسِّمُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (يوسف: ٤-٦).

ثم تبدأ مشاهد القصة وأحداثها، حتى إذا كانت خاتمتها عرفنا أنها كانت تصويراً دقيقاً لانتقال الرؤيا إلى واقع متدرج مع الأيام<sup>(٤٠)</sup>: "وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ" (يوسف: ١٠٠).

٣- وقد يمهد للقصة بذكر ملخص لها يشوق إليها، وينبه إلى ما تنطوي عليه من مقاصد القصة القرآنية، ويعالج ما قد يثار حول أحداثها، من تشكيك أو ما قد يثار حول أفكارها من آراء، ثم يعرض التفاصيل بعد ذلك، كما نرى في قصة أصحاب الكهف، فقد مهّد لأحداث القصة بقوله تعالى: "أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرْبَنَا عَلَى أذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا" (الكهف: ٩-١٢).

ذلك ملخص للقصة، ثم تتبعه تشاورهم قبل دخولهم الكهف. وحالتهم بعد دخوله، ونومهم، ويقظتهم، وإرسالهم واحداً منهم ليشتري لهم طعاماً، وكشفه في المدينة، وعودته، وموتهم، وبناء المعبد عليهم واختلاف القوم في أمرهم .. إلخ . فكأن هذا التلخيص كان مقدمة مشوقة للتفاصيل<sup>(٤١)</sup>.

٤- ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها، ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أولها وتسير بتفصيل خطواتها. وذلك كقصة موسى في سورة القصص . وهي تبدأ هكذا: "تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُم طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَدَّبْحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ

وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ" (القصص: ٢-٦).

ثم يمضي في تفصيلات قصة موسى: مولده ونشأته ورضاعه وكبره وقلته المصري وخروجه .. فكأن هذه المقدمة، التي تكشف الغاية من القصة كانت تمهيداً مشوقاً لمعرفة الطريقة التي تتحقق بها الغاية المرسومة المعلومة<sup>(٣)</sup>.

٥- وقد يذكر القصة بدون مقدمات ولا تمهيد، مكتفياً بإيحاء إلى محور القصة، علي نحو ما جاء في قصة سليمان مع ملكة سبأ، فالقصة تدور في محور العلم والإيمان، ومن ثم بدأت بعد قوله تعالى: " وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ" (سورة النمل: ١٥). وكما نري في الحلقة التي تعرضها سورة الأنبياء من قصة إبراهيم، فالقصة تدور في محور الجدل العقلي القائم علي التعقل والإتزان، ومن ثم بدأت بعد قوله: " وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ" (سورة الانبياء: ٥١). ثم تلا ذلك قوله تعالى: " إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ" (سورة الأنبياء: ٥٢).

٦- وقد يقدم أحداث القصة وفق ترتيبها الواقعي، فيصبح متلقي القصة مشاركاً لأصحابها، في الانتقال مع أحداثها ومواقفها، علي نحو ما نري في قصة مريم التي تقدمها سورة مريم، وما نري في قصة إبراهيم التي تعرضها سورة الأنبياء، فنحن مع قصة مريم نتقل معها من حدث إلى حدث ونمر معها بالضيق جاهلين نهايته حتى نصل معها في النهاية إلى سماع صوت طفلها عيسي يبرئ ساحته ويعرّف بنفسه، ونحن مع قصة إبراهيم نتقل معه في تحديده لقومه وسخريته من معبوداتهم، ونتدرج معه دون أن ينكشف لنا شيء ينمُّ عما تنتهي به القصة، حتى نراه في النهاية كما رأي نفسه محفوظاً من النار التي ألقى فيها لتحريقه<sup>(٣)</sup>.

٧- وقد يقدم أحداث القصة وفق ترتيب آخر ليجعل لنا بالكشف عن مفاجآت القصة، إيحاء إلى أن من وقائع الحياة ما يمكن للعاقل المؤمن البصير إدراكه قبل أن يقع ليعمل علي تدارك نفسه . كما نري في قصة أصحاب الجنة التي قدمتها سورة

القلم فبعد بدء أحداثها مباشرة قدّم حدثاً يعرفنا بما آل إليه أمر الجنة دون أن يؤثر ذلك علي مسار القصة، أو يصيبها بأدني قلق أو اضطراب: " إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ أَنْ اغْدُوا عَلَي حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ وَغَدُوا عَلَي حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَي بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عسى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَي رَبَّنَا رَاغِبُونَ " (سورة القلم: ١٧-٣٢).

٨- البيان القرآني في بعض مشاهد قصصه يعتمد علي إحضار الأحداث دون تدخل بالرواية وما تستلزمه من حكاية علي السنة الأشخاص . وكل ما يصنعه أنه ينسب إلى عنوان المشهد أو موضوعه بما يتناسب مع السياق البياني العام، ثم يخفي لتصدر الأحداث والأقوال من أصحابها مباشرة علي غرار ما نعرفه حديثاً باسم ( التمثيلية )، فيصبح متلقي المشهد كأنه حاضر وقائعه بنفسه دون واسطة. علي نحو ما جاء في قصة إبراهيم عليه السلام إذ يقدم القرآن مشهد بناء الكعبة فنري إبراهيم وإسماعيل أمامنا بأشخاصهما بينان ونسمعهما بألسنتهما يدعوان، حتى كأنهما معنا في عصرنا هذا أو كأننا انتقلنا إليهما في الماضي نعايشهما: " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَكَ وَآرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (البقرة: ١٢٧-١٢٩).

فالبيان هنا لم يتدخل إلا برفع الستار عن المشهد، وذلك قوله تعالى: " إذ يرفع " كلمة ( إذ ) هنا تمثل المفتاح الذي ينقلنا إلى الحدث الواقع أو ينقل الحدث ذاته إلينا فنشارك أشخاصه الزمان والمكان والحياة<sup>(١١)</sup>.

٩- والقرآن في أكثر قصصه يعتمد على أسلوب الأصوصة في العرض، فيسيطر بذلك على الموقف، لينتقي من الأحداث التي وقعت ما يحقق الهدف، وينسقها في إطار فني لا يخرج عن الحقيقة، ولا ينبو على الواقع، فالبيان القرآني - هنا - يحرّك الأشخاص الحركة نفسها التي تحرّكها في الواقع الماضي، غير أنه ينتقل بهم في قفزات، متجاوزاً من ذلك ما يراه لا يفيد في العرض، فيجمع بذلك بين الصدق الواقعي والصدق الفني، إذ لا يتوسل إلى إبراز موضوعه بوسائل مخترعة ينسب فيها إلى أشخاصه ما هم منه براء، ولا يترك ركام الأحداث الجانبية يطغي على الموضوع فيضلل المتلقي، وينأى به بعيداً عن الموقف الحقيقي، ولذا يغلب على قصصه نسبة الأقوال إلى أصحابها بواسطة (قال)، وقصّ ما حدث بما يناسب من وسائل الرواية والسرد القصصي، علي نحو ما جاء في قصة أصحاب الكهف، وقصة سليمان، وقصة يوسف ..

بيد أن تنمية الأحداث في بعض قصصه تعتمد بالدرجة الأولى على الوصف والتصوير كما توضحه قصة أصحاب الكهف، وفي بعضها تعتمد بالدرجة الأولى على الحوار كما في قصة " موسى والعبء الصالح " التي قدمتها سورة الكهف .. وقد يجمع بين الوسيلتين بدرجة متقاربة في تنمية الأحداث كما في قصة سليمان وملكة سبأ . ونبحث عن السرّ في ذلك فنجدّه يرجع إلى موضوع القصة، وإلى الغاية منها، فالقصة التي يقصد بها الوعظ وإرساء قيم خلقية يهتم فيها بالقص الواصف المستوعب، والقصة التي يقصد بها إقرار عقيدة أو توضيح فكرة يهتم فيها بالقص الحواري، فتبث في ثنايا الحوار الخفيف ما يصعب على العقل البشري استساغته من أفكار وعقائد . فإذا اجتمع في القصة المقصدان نجدها تقوم على السرد الوصفي والحواري بدرجة تتقارب تقارب المقصدين فيها، وتتفاوت تفاوتها<sup>(١٠)</sup>.

ب- وثانية هذه الخصائص الفنية في عرض القصة، تلك الفجوات بين المشهد والمشهد، التي يتركها تقسيم المشاهد " وقصّ " المناظر، بحيث تترك بين كل مشهدين أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال، ويستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد والمشهد اللاحق ..

وهذه طريقة متّبعة في جميع القصص القرآني علي وجه التقريب، ولنضرب عليها

مثلاً من قصة يوسف، فالقصة قد قسّمت ثمانية وعشرين مشهداً، فلنعرض بعض مشاهدتها:

لقد قدم إخوة يوسف وهو " علي خزائن الأرض "، في سنوات الجذب، يطلبون القمح، فطلب إليهم أن يحضروا أخاهم الآخر .. شقيقه .. فأحضروه - علي كُرو من أبيه - ثم وضع صواع الملك في رحله وأخذ به رهينة، باسم أنه سارق، ليبقيه يوسف عنده .. ثم هاهم أولاء إخوته ينتحون جانباً ليتشاوروا في أمرهم، وقد أبي عليهم يوسف أن يأخذ أحدهم مكانه: " فَلَمَّا اسْتِيَأْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ " ( يوسف: ٨٠-٨٢) ..

وهنا يسدل الستار، لنلتقي بهم في مشهد آخر لا في مصر ولا في الطريق، ولكن أمام أبيهم، وقد قالوا له ما وصّاهم به أخوهم دون أن نسمعهم يقولونه. إنما يرفع الستار مرة أخرى لنجد أباهم يخاطبهم: " قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " ( سورة يوسف: ٨٣) ويُسدل الستار ..

وهنا نري مشهداً آخر بين يعقوب وبنيه، ونراه قد ابيضت عيناه من الحزن، وهو دائم الحسرة علي يوسف، وأبناؤه يستنكرون عليه هذا كله: " وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِبيضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ قَالَ إِنَّا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُؤْا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ " ( يوسف: ٨٤-٨٧) .

وهنا يسدل الستار، ويطوون الطريق لا نعلم عنهم فيه شيئاً، إنها يرفع الستار فنجدهم في مصر أمام يوسف: " فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ " (يوسف: ٨٨).

### جـ وثلاثة الخصائص الفنية في عرض القصة - التصوير الفني:

إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن . فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحوادث المحسوس، والمشهد المنظور . وعن الأنموذج الإنساني والطبيعة البشرية . ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة . فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا الأنموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية . فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصه حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل . فما يكاد يبدأ العرض حتى يجيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول، الذي وقعت فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا كلام يُتلى، ومثل يُضرب، ويتخيّل أنه منظر يُعرض، وحادث يقع . فهذه شخوص تروح علي المسرح وتغدو، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات، المنبعثة من الموقف، المتساوقة مع الحوادث، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة، فتتم عن الأحاسيس المضمرة . إنها الحياة وليست حكاية الحياة..

فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصوّر المعنى الذهني والحالة النفسية وتشخص الأنموذج الإنساني أو الحوادث المروي، إنها هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تصور، ولا شخوص تعبر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في تعبير القرآن<sup>(٣٧)</sup>.

وبعد لقد استطردهنا في تتبع معظم خصائص القصة القرآنية. ولكن مما لا شك فيه أن قوة العرض والإحياء هي السمة البارزة في مشاهد القصة جميعاً . وأن هذا اللون هو الذي يطبعها، ويغلب فيها علي الألوان الأخرى.

- (١) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الثاني، ص ٧٢١.
- (٢) د. محمد عناني: خرافة الكمال: جريدة الأهرام ٢٧/٥/١٩٨٨.
- (٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الثاني، ص ٧٢١.
- (٤) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن: ص ٨٦.
- (٥) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم - ص ١٤. مطبعة السعادة، القاهرة، ط ١، سنة ١٩٧٧.
- (٦) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ٢٠٩، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.
- (٧) المرجع السابق، ص ٢١٠-٢١١.
- (٨) كل الذين يدركون أسرار الموسيقى وفلسفتها، لا يرون في الفن العربي بجملته شيئاً يعدل هذا التناسب الذي هو طبيعي في كلمات القرآن وأصوات حروفها، وما منهم من يستطيع أن يغمز في ذلك حرفاً واحداً؛ ويعلو القرآن علي الموسيقى أنه مع هذه الخاصة العجيبة ليس من الموسيقى
- انظر: المرجع السابق، ص ٢١٤.
- (٩) وقال بعض العلماء: كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المدّ واللين وإلحاق النون، وحكمة وجودها التمكّن من التطريب بذلك، كما قال سيوييه إنهم (أي العرب) إذا ترنّموا يلحقون الألف والياء والنون، لأنهم أرادوا مدّ الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنّموا وجاء في القرآن علي أسهل موقف وأعذب مقطع، وهذا قول ناقص.
- انظر: مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن: ص ٢١٧.
- (١٠) المرجع السابق: ص ٢١٦-٢١٧ بتصرف.
- (١١) راجع سورة مريم: الآيات من ١ إلى ١٥.
- (١٢) راجع سورة مريم: الآيات من ١٦ إلى ٣٧.
- (١٣) راجع سورة مريم: الآيات من ٣٤ إلى ٤٠.
- (١٤) راجع سورة مريم: الآيات من ٤١ إلى ٧٤.

- (١٥) راجع سورة مريم: الآيات من ٧٥ إلى ٨٧.
- (١٦) راجع سورة مريم الآيات من ٨٨ إلى ٩٨.
- (١٧) سيد قطب: في ظلال القرآن . المجلد الرابع، ص ٢٣٠٠ - ٢٣٠١.
- (١٨) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٩٢.
- (١٩) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن: ص ٢١٧.
- (٢٠) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن: ص ٨٩ - ٩٠.
- (٢١) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن: ص ٢٢٠ - ٢٢٤ بتصرف.
- (٢٢) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن ص ١٥٠.
- (٢٣) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٩٤ - ١٩٥.
- (٢٤) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الادبية في دراسة القرآن، ص ١٥٠.
- (٢٥) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٤٩٣.
- (٢٦) الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن ص ٧٨، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٤، دار التراث، القاهرة بدون تاريخ.
- (٢٧) د. حفني محمد شرف: إعجاز القرآن البياني، ص ٢٢٢.
- (٢٨) د. علي اليميني دردير: أسرار الترادف في القرآن الكريم، ص ٣٢-٣٣، دار ابن حنظل . القاهرة، ١٩٨٥
- (٢٩) المرجع السابق، ص ٣٤.
- (٣٠) المرجع السابق، ص ١٣١-١٣٢.
- (٣١) المرجع السابق، ص ١١٧-١١٩.
- (٣٢) المرجع السابق، ص ١١٩-١٢٠.
- (٣٣) أبو سليمان محمد بن الخطابي: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص ٣٦، تحقيق الأستاذ محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام، القاهرة، بدون تاريخ .
- (٣٤) ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص ٢٠٨.
- (٣٥) المرجع السابق، ج٢، ص ٨٦٢.
- (٣٦) د. علي اليميني دردير: أسرار الترادف، ص ٦٧-٦٨.
- (٣٧) الامام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج٤، ص ٧٨.
- (٣٨) أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ص ٢٠٠.
- (٣٩) سورة ق من آية ٣٣.
- (٤٠) المرجع السابق، أسرار الترادف، ص ٥٨-٥٩.
- (٤١) د علي اليميني دردير: أسرار الترادف، ص ٩٨-٩٩.
- (٤٢) ابن منظور: لسان العرب، ص ٧٠٤، حيث يشير إلى معني أن العصا صارت تتحرك كما

يتحرك الجان حركة خفيفة، ويقول أبو العباس: شبهها في عظمها بالثعبان وفي خفتها بالجان.

(٤٣) د. علي اليميني دردير: أسرار الترادف، ص ١٠٠

(٤٤) المرجع السابق، ص ١٠١.

(٤٥) الامام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان، ج ٣، ص ٣٧٨.

(٤٦) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٧٨.

(٤٧) في التعبير كلمة أخري جلييلة: وتلك أن فرعون يريد أن يبني صرحاً يبلغ به السماء فعبّر

بالإيقاد علي الطين تهماً علي فرعون، لأن البناء في مثل هذا لا يزال يرتفع بلا نهاية وإعداد

الآجر يجب أن يكون كذلك مستمراً باستمرار الإيقاد علي الطين، ثم تشعر العبارة أن النتيجة

لا شيء، فكانه لم يخرج لابتاء ولا مبنياً به، وما هو إلا البدء والاستمرار في البدء. انظر:

مصطفي صادق الرافي: إعجاز القرآن، ص ٢٣٤.

(٤٨) مصطفي صادق الرافي: إعجاز القرآن، ص ٢٣٥.

(٤٩) المرجع السابق، ص ٢٣١.

(٥٠) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٧٩-٨٠.

(٥١) د. محمد أحمد الغمراوي: الإسلام في عصر العلم، ص ٢٣٤.

(٥٢) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن، ص ١٥١.

(٥٣) مصطفي صادق الرافي: إعجاز القرآن، ص ٢٥٨، ٢٧٢ بتصرف.

(٥٤) الإمام الزركشي: البرهان في علوم القرآن. ج ٣، ص ٢٨٠.

(٥٥) ابن منظور: لسان العرب، ج ٤ - ص ٢٥٥٨.

(٥٦) عباس محمود العقاد: جحا اضاحك المضحك، ص ٧١، دار نهضة مصر، القاهرة، بدون

تاريخ.

(٥٧) الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ١ ص ١٦٠ -

١٦٢.

(٥٨) سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ٢٥٩٠.

(٥٩) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٢٠٩ - ٢١١ - ٢٤٠ - ٢٤١.

(٦٠) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٣٠٤.

(٦١) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٣٠٥.

(٦٢) ونظيره جواب ابن الجوزي لمن قال له: من كان أفضل عند النبي صلى الله عليه وسلم؟

أبو بكر أم علي؟ فقال: من كانت ابنته تحبه.. والإشكال في ضمير: "ابنته" وضمير "تحبه"

فإن فاطمة الزهراء ابنة الرسول كانت زوج علي، وعائشة بنت الصديق كانت زوج الرسول

. البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٣١٤-٣١٥.

(٦٣) هو محمد بن علي بن الخضر الغساني المعروف بابن عساكر، تلميذ أبي القاسم السهيلي

- صاحب كتاب التعريف والاعلام فيما أبهم من الأسماء والأعلام وكتاب ابن عساكر ذيل عليه، جمع بينهما شيخ الإسلام بدر الدين بن جماعة في كتاب واحد سماه " التبيان".
- انظر: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٧٨-٤٧٩.
- (٦٤) وفي حاشية إحدى النسخ: " هذا مقول امرأة العزيز، ويوسف عند هذه المقالة في السجن، بدليل قوله: " اتتوني به " وأيضاً قول للرسول: " ارجع إلى ربك " ولم يخرج معه، وبدليل قوله صلى الله عليه وسلم: لو كنت من يوسف لأجبت الداعي ".
- (٦٥) الإمام الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ١ ص ٦٥-٦٦.
- (٦٦) السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص ١٥٨.
- (٦٧) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، ص ١٩٢.
- (٦٨) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٤٨.
- (٦٩) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١١٦.
- (٧٠) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٢٠.
- (٧١) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٤٩.
- (٧٢) المرجع السابق. ص ١٤٩.
- (٧٣) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٢٠.
- (٧٤) المرجع السابق، ص ١١٦.
- (٧٥) المرجع السابق، ص ١١٧-١١٨.
- (٧٦) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ٣٤.